Community of Saint Egidio

"The value of Christian Churches in the Middle East

Christian and Muslims discuss about it"

الغنى الروحي للكنائس الشرقية

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG -WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG

روما ٢٠٠٩

مقدمة:

بدايةً نشكر جمعية St. Egidio على اهتمامها بمسيحيي الشرق الأوسط وغنى خبراتها، الأمر الذي يعني المسيحية عامةً، وبالتالي بالإنسانية قاطبةً.

موضوع مداخلتنا هو الغنى الروحي للكنائس المسيحية في الشرق الأوسط. إن الموضوع، من وجهة نظرنا، لا يتعلق حصراً بفرادات فكرية لاهوتية، وإنما أيضاً بالظروف التاريخية للمنطقة. فبما أن اللاهوت المسيحي وفعله هو تاريخ حوادث وليس مجرد معتقدات، وبما أن الإيمان والحياة عاملان متأثّران مترافقان غير منفصلين يصوغ كل منهما الآخر، لذلك سنحاول الإحاطة بالميزات الإيمانية والتاريخية لكنائس هذه المنطقة، والتي تعطيها اليوم غنىً مميزاً ودوراً هاماً.

A. الغنى الروحي اللاهوتي:

والمقصود هنا باللاهوت الشرقي للكنائس الأم، الذي لم يبقَ بمعزل عن تأثير اللاهوت الغربي منذ زمن الإرساليات. تتميز الكنائس الشرقية بفرادات تجعل دورها غنياً ومنها:

١. **ميزات جغرافية**: إن المكان والزمان عنصران بأهمية أكبر مما نظن أحياناً لفهم الرسالة المسيحية. يعرف المفسرون للكتاب المقدس أهمية العقلية الساميّة والعناصر الثقافية والاجتماعية الشرقية على مسيرة تفسير الكتاب المقدس. فأهل فلسطين وصور ولبنان وسوريا... يعيشون حوادث الكتاب المقدس في مكانها.

٢. **ميزات اجتماعية**: أهمها **النظام "البطريركي"**، والمعني به خاصةً، البنية العائلية في فلسفة الكتاب المقدس وحوادثه، البنية التي مازالت حيّة وأساسية في حياة الإنسان الشرقي.

هناك أيضا الطابع النسكي المماثل، فبعد ٢٠٠٠ عام يمارس المسيحيون الشرقيون العبادات والنسك المماثل لبني زمن الكتاب المقدس، من ناحية الطقوس في زمنها وفصولها وطبيعتها، والأصوام والأعياد...الأمر الذي يغيب في الغرب.

هناك العبادة "القلبية" التي تحولت في الغرب إلى عبادة "عقلية". القلب هو ساحة اللقاء بين الله والإنسان في الكتاب المقدس، لا العقل. القلب مركز الحياة عند الإنسان الشرقي. لذلك تنصهر العبادة القلبية عنده بسهولة كمجمل العلاقات البشرية. القلب عند الساميين غير "النوس" في الهيلينية والأوروبية الحديثة وريثتها. الحياة الروحية الشرقية ليست أبداً الحياة الخلقية المسيحية فقط. المسيحية دين وجودي كينوني وليس علمَ اجتماع، وإن كانت الأولى تصلح لتوجيه الأخير.

"قراءة الكلمة" ومفهوم الكتاب المقدس في الشرق مختلف تماماً عن مفهوم "الكتاب" عند أهل الكتاب أو عنه عند بعض الغربيين. فالكتاب المقدس لدى الشرقيين هو كتاب الجماعة المسيحية أكثر منه "كتاب الله"، أي يُفهم في شركة القديسين ويعاش مشروحاً في حياة الكنيسة، وليس ككتاب مبادئ دينية يُدرس ويفسَّر.

الرعاية" هي الفعل الحقيقي "للكلمة" ومكان عملها. كلمةُ الله تُفرَّغ عندما لا تمارَس، لذلك الكتاب دون رعاية هو مصحف تاريخي وليس "كلمة الله".

من هنا نجد أن الكنائس في الشرق الأوسط تتميز برعايةٍ مباشرة لأولادها وتبنّي لمسائلهم الحياتية كلها، والانتماء إليها ليس مجردَ انتماءٍ طائفي أو عقائدي بل وجودي، إذ يشعر المؤمن أن حياته من حياتها ووجوده من وجودها وشهادته من شهادتها ودوره جزء من دورها.

تبرهن الإحصائيات ذلك، فنسبة الممارسين والشباب وتوافد الأطفال إلى التعليم الديني، بالإضافة إلى عدد المؤسسات العلمية من الجامعات والمدارس، والمؤسسات الاجتماعية التي لا تعد والأخويات والجمعيات التي لا تحصى أشكالها ولا أعدادها، هي بنسبٍ مرتفعة جداً. إذاً إن الكنيسة فاعلة وشاهدة في العالم، تلعب دورها الرعوي وتأخذ حيزاً كبيراً من الأدوار الأخرى التي كان على الدولة أن تقوم بها و لم،

بسبب الأوضاع السياسية في المنطقة والعجز في العالم الثالث. ليست الكنيسة إذاً مكاناً لفهم مبادئ وحسب، بل هي طريقة الحياة بالنسبة لكل مؤمن.

هذا الدور الرعوي يجسّد اللاهوت الشرقي في التركيز على مفهوم "الكنيسة المحلية". فالكنيسة ليست مؤسسة عالمية ينتمي إليها أفراد قلائل أو كثيرون. الكنيسة هي العائلة، هنا، في مكان محدد، تشبه اجتماع المسيح مع الرسل على مائدة العشاء السري. فالأعضاء يعرفون بعضهم البعض والرب يسوع في وسطهم متمثّلاً دوره بدور الكاهن أو ما نسميه "الأب" الروحي الذي يفيض بعمله الرعوي على الجماعة المؤمنة والشاهدة أبوةَ الله وحنانه وكلمته خاصة في الليتورجيا. الكنيسة إذاً ليست جماعاتٍ بل عائلاتٌ صغيرة حول "الحمل" الذبيح.

- **الإسخاتولوجيا** عنصر حي في الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. ليس كانتظارٍ سلبي، بل كعنفوانٍ وشعور حي لحظي يجعل المؤمن لا يقبل بسهولة التنازلات ويرغب بشدة أن تتحقق في مجتمعه هنا والآن صورةُ ملكوت الله ولو جزئياً.

إن خضوع كنائس منطقتنا إلى الفتوحات العربية الإسلامية والحملات الصليبية، ثم للسلطة العثمانية والتبشير الغربي بعدها، كلها ظروف "قصّرت الأيام" عليها، مما جعلها تفقد الكثير من جماليات الطقوس والأعياد من ناحية، لكن من ناحية ثانية جعلت هذه "الضيقةُ" اللاهوتَ في نظرياته والعبادةَ في طقوسها يتعرضان دوماً في هذه الكنائس إلى تنقيةٍ وتجديد. فكل ما ليس ضرورياً جداً للحياة يسقط عندها بينما تحافظ بسهر ووعي على "وديعة الإيمان" الذي يقود الحياة، وبذلك تتفوق مراتٍ عديدة على شقيقاتها من الكنائس الشرقية المذهب (الأرثوذكسي) في الغرب، والتي تعجّ حياتها بالتقاليد الشريفة، ولكن تتفكك فيها الروابط بين الطقس والحياة وبين الممارسة الكنسية والممارسة اليومية، وينفصل الوجود الشخصي عن حياة الكنيسة. إن كنائسنا أقرب إلى صورة كنيسة أعمال الرسل منها إلى كنيسة أمبراطوية، وهذا صفاء.

هذه الضيقة التاريخية علّمت الكنيسة الشرقية أن تنجو في التاريخ بالجوهر وأن تكون قابلة للتحرر من الروابط الأخرى، فتحفظ **الإيمان حراً** من قبل التقاليد وفوق الارتباطات الإثنية أو الاجتماعية. إن خسارتها تستطيع أن تصير ربحاً لها.

B. الغنى الروحي التاريخي:

يرتبط البعدان اللاهوتي والتاريخي لأن تاريخ الكنيسة الشرقية كان خلطاً من ظروف سياسية تبعتها تغيرات دينية، أو العكس. بحيث أن البعدين يكادان لا ينفصلان.

Ex Oriente Lux. يأتي النور من الشرق. هذا ما يقال وهذا ما حدث. فنور الإيمان، وليس فقط نور الإيمان المسيحي، انبثق من الشرق ومنه امتدّ إلى مختلف بقاع الدنيا. وهذا شرف وعاه الشرق ووعاه مسيحيو الشرق. بيد أن الشرق ومسيحيي الشرق دفعوا ثمنه غالياً، ولا يزالون.

تأسست الكنيسة في الشرق في القدس يوم العنصرة عام ٣٣. ثم بكرازة الرسل، بطرس ويليه بولس. وسرعان ما واجهت هذه الكنيسة المتحدّرة من أصل يهودي مسيحيين جدداً أتوا من "الأمم"، مما سبّب خلافات عولجت في مجمع القدس عام ٥٠[١] بيد أن الوقت مال لصالح المسيحيين من أصل وثني، وأخذت الكنيسة الشرقية تدريجياً طابعاً أممياً وأصبح أسقف القدس من أصل أممي وهو مرقس[٢].

وإن كان السلم الروماني Pax romana سمح للكنيسة بالانتشار بسهولة لا سيما بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣، وخصوصاً بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة، إلا أن النقاش العقائدي لم يتح للكنيسة الشرقية أن تعيش بهدوء. فمن جهة كان لا بد من صهر العقيدة المسيحية في قالب الفكر اليوناني السائد آنذاك وابتكار تعابير لاهوتية تعكس إيمان المسيحيين بلغةٍ يفهمها مثقفوا العصر. ومن جهةٍ ثانية، حال تنوعُ الثقافات واللغات والطقوس والتقاليد دون الاتفاق على تعابير موحّدة للسر الالهي. فانعقدت المجامع

[١] راجع اعمال ١٥

[٢] راجع المؤرخ اوزيبيوس ٤،٦.

المسكونية العقائدية التي عانت كثيراً للوصول الى اللغة اللاهوتية التي تعبّر عن السرّ الإلهي بشكلٍ صحيح ومناسب ومقبول. بيد أن ذلك لم يحدث دون انقسامات وانشقاقات مزّقت ثوب المسيح غير المخيط. ومعظم هذه النـــزاعات تركت أثراً باقياً حتى اليوم في الكنائس الشرقية، نتيجة الخلافات حول ألوهية السيد المسيح أو حقيقة التجسد....الخ، ولم تكن غالباً الأسباب التي قضت على الوحدة كلّها عقائديةً، بل كانت أيضاً أسباباً فلسفية وحضارية وسياسية واجتماعية[٣].

واستمرّت التحوّلات السياسية الدينية التي أثرت بعمق على الكنائس الشرقية، خصوصاً مع الفتح العربي الذي مهرها بالطابع العربي الاسلامي حتى اليوم. فتعايشت الكنائس الشرقية مع الاسلام، وعرفت انفتاح الامويين وتسامحهم وشدّة العباسيين وقسوة الفاطميين ووسيطرة الصليبيين وفساد المماليك وظلم الاتراك، ولم تختف. "لم تعرف كنائس الشرق نظام المسيحية المنتصرة الذي قام في أواخر الالف الاول في العالم البيزنطي واوروبا الغربية. كان على الكنائس الشرقية أن تعيش في اتضاع لا بل أن تتعرّض للإذلال. لم تعرف لا مجد ولا أوهام الأمبراطوريات العظمى[٤].

وجاءت الحروب الصليبية، التي أنزلت بالمسيحين الشرقيين بلاءً كبيراً. الأمر الذي ترك في ضميرهم جرحاً بليغاً. لقد دفع المسيحيون الشرقيون ثمن الخط الدفاعي الأول في نقطة التماس في الشرق بين الإسلام العربي والإسلام التركي و المسيحية وأوقف هذا الثمن المدَّ العسكري عن العالم الغربي. أما مكافأةُ العالم المسيحي الغربي فكانت حرباً شعواء صليبية جاءت إلى الشرق لا لتعوّض للمسيحية الشرقية بل لتقوّضها.

لم تكن القرون الحديثة أقل ألماً بالنسبة للكنائس الشرقية. فقدوم المبشرين والحكومات الفرنسية والإنكليزية المسيحية إلى المنطقة هدفَ في ممارسته ليس إلى دعم الكنائس المحلية بل إلى اقتطاع أعداد جديدة من المسيحيين الشرقيين وتأسيس كنائس جديدة في الشرق، أثبتت الخبرة فيما بعد أنها لم تكن

---

[٣] انظر مجلس بطاركةالشرق الكاثوليك، **ليكونوا بأجمعهم واحدا، الحركة المسكونية**، فصح ١٩٩٩، رقم ١٠-١١.

[٤] البطريرك اغناطيوس الرابع، **من خبرة انطاكيا الى دعوتها**، ص. ٢١

الأسلوب الأمثل لتحقيق الوحدة[٥]. فقد عمل المندوبون الساميون على دعم المجموعات الكاثوليكية على حساب الكنائس الأرثوذكسية هناك.

ما هو إذاً فكر وفعل المسيحية الشرقية تجاه هذين العالمين الشرقي الإسلامي والغربي المسيحي الكاثوليكي وبعده البروتستانتي؟

مهما كثر الذين قدّموا "خدماتهم-بلغتهم" للمسيحيين في الشرق الأوسط، إلا أنهم تابعوا دورهم المسيحي والإقليمي بقوتهم الذاتية محاولين أن يبقوا أمينين لما تسلموه من الرسل القديسين. وضعت الروحانيةُ الصافية الكنيسةَ في الشرق في مواجهةٍ تاريخيةٍ حقيقية أمام الآخر. أمام الانقسامات التي ولدتها الإرساليات التبشيرية وأمام العالم الإسلامي الذي يعاملها مراتٍ عديدة كأقليات، وأمام الظروف الإقليمية المتردّية، فنشأت في إيمان هذه الكنائس مفاهيم هامة.

١. **الروح المسكونية**: التي بدأت عندها من قرار في المسامحة والمصالحة، ونسيان ذاكرة الألم الماضية من أجل المستقبل الأفضل للشهادة المسيحية في المنطقة. فالمسكونية هنا ليست حوارات عقائدية فقط، بل هي ترميم في المحبة يتجلّى بموقف الانفتاح والغفران عند الشرقيين، وعند الغربيين بموقف التوبة وإعادة الاحترام للكنائس الأم.

٢. **العلاقات الإسلامية المسيحية**: عاشت المسيحية الشرقية مع الإسلام قروناً طويلة. في ظروف منها قاسٍ ومنها متفهّم. يتكلم المسيحيون الشرقيون اللغة العربية لغة القرآن الوحيدة ويعرفون ويعيشون الكثير من العادات الإسلامية. هذان العاملان المشتركان، التاريخ واللغة، يجعلان مسيحيي الشرق الأقدر بامتياز بين كل المسيحيين عامةً على محاورة الإسلام وتفهمه والتفاعل معه بنجاح. ومن جهةٍ أخرى إن الحوار مع الآخر في الخارج يعكس معرفةً عميقة في الداخل مع الذات. فالسؤال مثلاً عن الثالوث الأقدس قد لا يُطرح في الغرب، إذ يقبل المؤمن هذا المفهوم وراثياً، لكنه مطروح حتى عند الأطفال المسيحيين في الشرق بسببٍ من إثارة الوسط الخارجي. مقابلة الآخر تبلور الذات.

[٥] انظر أعمال اللقاء الكاثوليكي الأرثوذكسي في البلمند (لبنان) ١٩٩٣.

- **روحانية المسؤولية الوطنية:** لا يعتبر المسيحي الشرقي نفسه دخيلاً أو غريباً، بل الابن البِكر والأصيل في بلده.

فتصطبغ روحانية إيمانه بالالتزام الوطني والتزام شؤون حياة مجتمعه كله بمسيحييه ومسلميه وسواهم. ربما هذه روحانية بولس الرسول أكثر مما هي روحانية بطرس، وهي أكثر أصالة إلى روحانية الإنجيل، لذلك تميَّز مسيحيو الشرق والأرثوذكس خاصةً، بتأسيس الحركات الفكرية والسياسية، وباختصار إن مساهمتهم الإصلاحية رائدة وربما سبّاقة دائماً. وهذا غنى آخر.

"وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"[٦]. إن الكنيسة الشرقية، مهما تألّمت ومهما عانت ومهما تمزّقت، تؤمن وتعلم أن مؤسسها حيّ وأنها تعيش من حياته. ولأنه حي ولأنها حيّة فيه وبه ولأجله، يجب أن تبقى مشرقة ومتفتّحة ومنفتحة، كي تبقى نوراً وملحاً وخميرة. والثمن الذي يجب أن " تدفعه" هو ما قاله البطريرك إغناطيوس الرابع في محاضرة له في المعهد الكاثوليكي في باريس: "يترتّب علينا، إن أردنا أن ننفتح نحو المستقبل، أن نكسر حلقة الخوف". فالكنيسة عروس الروح، والروح نار، والنار ليست "لنلعب بها، فإمّا أن نطفئها وإما أن نلقي بأنفسنا فيها، فتلهب الكنيسة قاطبة، وبها الإنسانية والكون"[٧].

[٦] متى ١٦، ١٨

[٧] البطريرك اغناطيوس الرابع، **القضية المسكونية على ضوء الخبرة الانطاكية**، ص ٤١.